"وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا"... حقائق القدر

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة التي وردت في كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ﷺ، وقد دلَّ القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع المسلمين والفطرة والعقل على وجوب الإيمان بالقدر.

– مفهوم القدر:

القدر لغة : يدل على مبلغ الشيء. وكنهه ونهايته. ويطلق القدر على الحكم والقضاء أيضاً ومن ذلك حديث الإستخارة "فاقْدُرْه ويسرّه لي". والقدَر بتحريك الدال أو تسكينها معناه الطاقة، قال تعالى:"وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ"(البقرة: 236) : طاقته. كما يأتي القدر بمعنى التضييق، بقوله تعالى:" وَأَمَّا إِذَا مَاابْتَلَاهُ فَقَدَرَعَلَيْهِ" (الفجر:16) . يعني فضيق عليه، ومنه قوله تعالى في حق نبيه يونس ـ عليه السلام ـ "فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ" (الأنبياء:87) أي: لن نضيق عليه، وليس كما ظن بعض الناس أن يونس ـ عليه السلام ـ شك في قدرة الله كلا. " فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَعَلَيْهِ" أي: لن نضيق عليه.

أولا – المفهوم الشرعي للقدر:

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القِدم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة ، وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا و خلقه لها.

أمَّا القضاء والقدر: فهو متعلق بتوحيد الرُّبوبية، وقد سبق أنَّ توحيد الأُلوهية: هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وتوحيد الرُّبوبية: إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتَّدبير، وتوحيد الأسماء الصِّفات: هو توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته.

والقضاء والقدر سرُّ الله تعالى المكتوب الذي لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، مكتوب في اللوح المحفوظ، في الكتاب المكنون الذي لا يطَّلِع عليه أحد.

– القدر في الفطرة ... ذكر القدر في أشعار العرب قبل الإسلام

الإيمان بالقدر مركوز في فطر البشر، لم ينكره إلا شواذ المشركين، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره في الجملة، إنَّما وقع في فهمه على الوجه الصَّحيح، ولذلك الكفَّار ما قالوا: إنَّ الله ما شاء ولا قدَّر، لكن قالوا: في كفرهم وشركهم في تعليله لو شاء الله ما أشركنا، فهم احتجوا به واستعملوه غلط، وفهموه على غير الوجه الحقِّ، فهم أثبتوا المشيئة ولكنَّهم احتجوا بها على الشِّرك، يريد أن يعذر نفسه على الشِّرك قال: الله قدَّر وشاء، وسنأتي إلى هذا بمشيئة الله تعالى، بل إن العرب حتى في الجاهلية كانوا يعلمون أنَّ المنايا مكتوبة، حتى العرب الكُفَّار الذين كانوا في الجاهلية مبثوث في أشعارهم هذه العقيدة وهو ما قالها عنتر لعبلة:

يا عبلُ أين من المنية مهرب إن كان ربي في السَّماء قضاها

وقول طرفة بن العبد:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

وقال لبيد:

صادفنا منها غرة فأصبنها إن المنايا لا تطيش سهامها

وأنَّا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومُقدرينا.

هذا قاله عمرو بن كلثوم وهانئ بن مسعود الشيباني في خطة ذي قار لما خطب بقومه، قال لهم العبارة المشهورة: أن الحذر لا ينجي من قدر، تجري المقادير على غرز الإبر، ما تنفذ الإبرة بقدر.

ولما دخل بعض هؤلاء في الإسلام صارت أشعارهم طبعاً منطلقة من هذا الدين.

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي والعجل

أحمد الله فلا ند له بيديه الخير ما شاء فعل.

– الفرق بين القضاء والقدر:

من أهل العلم من قال: لا فرق بين القضاء والقدر، فكل منهما يدخل في معنى الآخر، فإذا أطلق التعريف على أحدهما فيشمل الآخر بمعنى: إذا أطلق التعريف على القضاء، فإنه يشمل القدر، وإذا أطلق التعريف على القدر فإنه يشمل القضاء.

قال آخرون: لا، هناك فرق بين القضاء والقدر، فالقضاء: هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل. أما القدر: فهو الحكم في وقوع الجزئيات لهذه الكليات التي قُدّرت في الأزل، فالقضاء أشمل وأعم من القدر.

ومنهم من قال: بأن القدر: هو التقدير، والقضاء، هو التفصيل بمعنى: أن القدر: هو التقدير القديم الأزلي، والقضاء: هو التفصيل لهذا القدر الكلي في أوقات معلومة بمشيئة الله تبارك وتعالى على الكيفية التي أرادها أو خلقها عز وجل.

فالقضاء والقدر لفظان متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن افترقا، يعني: إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا بمعنى: إذا ذكر القضاء والقدر معاً، فالمعنى لكل مفردة منهما واحد، وإذا افرد اللفظان صار لكل مفردة منهما معنى يختلف عن معنى الآخر. فالتقدير: هو ما قدره الله سبحانه وتعالى في الأزل أن يكون في خلقه التقدير، وعلى هذا يكون التقدير سابقاً على القضاء، وأما القضاء إذا ذكر مع القدر فكلاهما معنى واحد مشترك. ويرى الخطابي: أن القضاء والقدر أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه.

والحق أنه لا فرق بين القضاء والقدر، والذين قالوا بالتفريق بين القضاء والقدر لغة واصطلاحاً لا دليل لديهم من السنة الصحيحة، لا سيما وقد اتفقوا جميعاً على أنه إذا أطلق لفظ من هذين اللفظين فإنه يشمل الآخر. والله أعلم.

ثانياً: أدلة القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالقدر:

وردت في كتاب الله تعالى ـ آيات تدل على أن الأمور تجري بقدر الله تعالى، وعلى أن الله تعالى علم الأشياء وقدرها في الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدرها ـ سبحانه وتعالى.

قال تعالى:" إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (القمر: 49) قدر الله كل شيء في الأزل وكتبه سبحانه.

وقوله تعالى:" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا" (الأحزاب، آية 38). أي قضاء مقضيا، وحكماً مبتوتاً وهو كظل ظليل، وليل أليل، وروض أريض في قصد التأكيد.

وقوله تعالى:" فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى"(طه: 40) ، أي أنه جاء موافقاً لقدر الله تعالى وإرادته على غير ميعاد.

وقوله تعالى:"فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ* فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ" (المرسلات: 21. 23) . أي جعلنا الماء في مقر يتمكن فيه وهو الرحم، مؤجلاً إلى قدر معلوم قد علمه الله . سبحانه وتعالى . وحكم به، فقدرنا على ذلك تقديراً فنعم القادرون نحن، أو: فقدرنا ذلك تقديراً فنعم المقدرون له نحن . على قراءتين، والقراءة الثانية "قدَّرنا" بالتشديد توافق قوله تعالى:" مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ" (عبس: 19) .

وقال تعالى:" وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا" (الفرقان: 2): أي كل شيءٍ مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيءٍ تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

وقال تعالى:" وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّبِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ" (الحجر: 21) . يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيءٍ سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، "وَمَانُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ" كما يشاء وكما يريد ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة.

وقال تعالى:" نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَانَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ" (الواقعة: 60) أي: صرفناه بينكم "وَمَانَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ" أي: وما نحن بعاجزين. وقال تعالى:" وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ" (فصلت: 10) . وقال تعالى: "مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ" (عبس: 19) ، أي: قدر أجله ورزقه وعمله، شقي أو سعيد. وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله قدر كل شيء.

ومما تقدم، فإن من لم يؤمن بالقدر لا تقبل أعماله، فلا ينتفع لا بصلاة ولا بصيام ولا بصدقة ولا غير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ المائدة: 5 . فإيمان العبد ودينه لا يمكن أن ينتظم إلا إذا آمن بأقدار الله جل وعلا، وأنَّ كلَّ شيء بقدر، وأن يؤمن بالقدر كلِّه حلوه ومره، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فلا إيمان لمن لم يؤمن بالقدر، ومن كذب بالقدر فلا إيمان له ولا توحيد، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: (الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن وكذب بالقدر فهو نقض للتوحيد)، ومما يوضح هذا قول الإمام أحمد: (القدر قدرة الله)، فأي توحيد عند من ينكر قدرة الله.

أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره قال النووي رحمه الله: "وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصَّحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله تعالى". [شرح النَّووي على صحيح مسلم: 1/155 . قال ابن حجر: "ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى" فتح الباري: 11/478.

فما شاء الله كان ولو نحن ما شئنا، وما شئنا نحن لا يكون إذا الله ما شاء، ولذلك ليس إلَّا الرِّضا بهذه العقيدة، وأن نسير على منوالها، وأن نعتقد أنَّ كلَّ شيء مكتوب، وهذا الذي يحمي الإنسان من الصَّدمات والانهيارات النَّفسية والروحية، وهذا هو الاعتقاد بقضاء الله وقدره، والذين ينهارون نفسياً والذين ينتحرون عندهم فراغ روحي وضعف في هذه المسلمات الإيمانية في أنفسهم.

المراجع:

1- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 5 / 99.

2- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 422.

3- صديق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن،7 / 375.

4- الطبري، تفسير الطبري، 15 / 62.

5- علي محمد الصلابي، الإيمان بالقدر، دار الروضة، إسطنبول، 2017.

6- القضاء والقدر د. المحمود ص 34.

7- محمد حسان، الإيمان بالقضاء والقدر، ص 41.

8- محمد صالح المنجد، القضاء والقدر، موقع الشيخ محمد صالح المنجد، رابط: https://www.almunajjid.com/8818